الجماعة الوطنية: إلى أين؟ (*)

من وقت لآخر تدهمنا واقعة مفاجئة أو نعتبرها مفاجئة لأننا فقدن قدرة "التوقع" بانحسار ملكة التفطن والالتفات، فتستدعى الواقعة التفاتنا واهتمامنا، وتستدعى معهما ما يستوجبه الحدث أو الظرف من فحص ومن تدارك غالبا ما يكون سريعا أو متسرعا تحت ضغط الظرف، حتى إذا ما انحسرت موجته، عدنا إلى ما كنا فيه أو عليه!!

ويلاحظ المتابع لأحداث أو واقعات الاحتقان الطائفى التى تداعت أو تتداعى من وقت لآخر، أن كلماتنا تسارع إلى المداواة والتطييب والتهدئة والامتصاص.. يحكمها مهما اتسعت رؤيتها أو بحثها، الرغبة المحمودة فى تجاوز الحدث وعودة المياه إلى مجاريها حفاظا على وحدة النسيج المصرى الذى بلغ أبلغ مظاهر توحده فى ثورة ١٩١٩، وفى حرب ١٩٧٣، بل وفى نكسة ١٩٦٧!!.. تتسع الكلمات وتضيق، وتغوص وتتسطح، تفور فى كل مرة، وتشق طريقها إلى النخبة وإلى الناس فى قنوات التعبير المقروءة والمرئية والمسموعة، وفى الندوات التى تعقد، والمؤتمرات التى تقام، والمناقشات الشعبية أو الحزبية أو البرلمانية التى تثار، ثم فجأة: تسكت الكلمات، وتهدأ الضجة وتنطوى ـ مع تباعد الحدث ـ الصفحة التى فتحت، وتعود القضية التى ألحت كقارعة إلى أضابير المحفوظات وطوايا النسيان إلى أن تصفعنا قارعة جديدة، تفتح ملف القضية لأيام أو لأسابيع، سرعان ما تعود بعدها إلى طيها من جديد، وإيداعها فى مرقدها

---

* ٢٠٠٥/١٢/٢٢

ككثير من قضايانا الراقدة بعد نقاش ساخن عابر سرعان ما يخمد إلى أن يُستدعيه طارئ جديد!

هذه الظاهرة فرع فيما يبدو على حالة اللا تحسب أو اللاتفطن أو اللاتوقع أو اللاالتفات التى صارت مسلكا عاما يبدو طفحه فى صور عديدة تصادفنا فى الحروب التى لا نلتفت لمواقع غاراتها المتوقعة إلاّ بعد حدوثها، وفى الاغتيالات التى تسبقنا إلى مرادها، وفى الحوادث الطارئة التى تتنوع بتنوع ظروف الحياة والناس، فيطفو العجز والشلل والقصور على ما نواجهه أو لا نواجه به هذه الحوادث الفجائية، والحرائق، والزلازل، وإصابات أو حوادث أو انغلاقات الطرق، أو هطول الأمطار وهبوب العواصف، أو انفجارات مواسير المياه، أو الأزمات الصحية المفاجئة، جاهلين بما ينبغى عمله بسرعة وكفاءة لمواجهة هذه الطوارئ التى لا تخلو منها الحياة.. معظمنا ـ ان لم نكن جميعا ـ لا يعرف كيف يجرى التنفس الصناعى، أو كيف يستخدم طفاية الحريق المركبة بسيارته أو بأرجاء المكتب أو المرفق الذى فيه يعمل، مثلما لا يعرف كيف يستدعى المطافى أو الإسعاف، أو كيف يتعامل مع الأزمات القلبية أو الهبوط أو النزيف المفاجئ أو الجروح والإصابات، أو كيف يتم إخلاء المبانى والأدوار العالية فى حالات الحريق!!

غياب "التوقع" وشيوع "اللا تحسب"، وحلول "رد الفعل" محل الفعل" ـ فيما يداهمنا دون أن نتفطن إليه أو نعالجه سلفاً بما نستطيع، أو نتدبر وسائل وآليات التعامل معه إذ أفلت زمامه وفجأنا ـ إنما مرده إلى غياب الالتفات الجاد.. هذا الالتفات الذى لايفارق العقلاء ويبذلون له كل ما يستطيعونه من الشحن والتركيز والعناية والتبصر والفطنة والانتباه، ويخطو بوعيهم وفكرهم واهتماماتهم خطوات تتجاوز "اللحظة" أو "اليوم" إلى استشراف وتوقع لما هو قابل!

إلى ملكة الالتفات والانتباه، يرجع كل ما لدى الأفراد والجماعات من حصاد كثير أو قليل، وإليها ترجع قدرتهم على التعامل مع الطوارئ والمجاهيل، لأنها وإن كانت فى دنيا الاحتمالات، إلاّ أن الاحتمالات واردة الحدوث، وتغدو متيقنة أو مؤكدة الحدوث إذا سبقتها مقدمات تورى بها أو تسلس أو تؤدى أو تقود إليها.. فى هذه الحالة يغدو القعود عن الالتفات نقيصة، بل جريرة كبرى إذا جاء فيما يمس مصائر الأوطان والشعوب.. على قدر هذه الملكة صعودا وهبوطا ـ على قدر ما يدين للأفراد والجماعات والأمم والحضارات من انجازات فى العلم والاجتماع أو الاقتصاد أو السياسة، وعلى قدر ما تأمن به غوائل المفاجآت!..

تختلف درجات التفات البشرية بعامة باختلاف العصور والدهور ودرجات النمو التى مرت بها.. تشهد بهذا كتب التاريخ، ويسرى ذلك على كل فرد وجماعة بالغاً ما بلغ ضيقها أو اتساعها.. ذلك أن الالتفات قرين الاهتمام وتوأمه، ولذلك تفاوتت الحضارات والجماعات صعودا وهبوطا تبعاً لحجم أو لدرجات الاهتمام والالتفات فيها.. وتستطيع أن تمسك بأثر هبوط ملكة الالتفات على الأفراد والجماعات والشعوب والأمم حين ترقب مقدار الخفوت الذى تدلى به ظاهرة "الاتكال" على "لطف المقادير"!.. هذا "الاتكال" الذى بات عادة تورى بخبو الوعى والإرادة وتراكم الغيبوبة التى تنسى الناس فطنتهم والتفاتهم الواجب لحساب عواقب الأمور!

ضمور الفطنة لا يصيب الأفراد والمجتمعات دفعة واحدة، وإنما يتسلل إليها ويتزايد بالتراكم.. هذه "الفطنة" شيء غير الذكاء الذى يقصد به جانب أو أكثر من جوانب الذهن.. فقد يكون الذكى فطنا وقد لا يكون فطنا على الإطلاق!.. وهى شيء غير التعليم والتعلم، فالمدارس والمعاهد توسع المعلومات وقد تنمى الذكاء وعلى أساسهما تمنح الدرجات والشهادات، ولكن لا شأن لها بالفطنة التى

تسلس إلى الانتباه والالتفات.. وحين تضعف هذه "الفطنة "، سواء كان الضعف فى الفرد أو الجماعة، فإنها تميل بصاحبها أو بأصحابها إلى استسهال الخديعة مع النفس ومع الغير.. ترى الظاهرة أو الشىء أو العيب ببصرها، ولكنها لا تراه ببصيرتها، ولذلك فإن الفطنة الضعيفة أو الخابية لا تدرى ولا تلتفت لدور ووزن الواقع، ولا إلى أبعاد الخيال والاستقراء فى التنبه للظواهر وقيادة الحياة المشوشة التى تزحف عليها السلبيات كزحف الكثبان الرملية!!..هذه الفطنة القاصرة أو الخابية: صديقة "اللاتوقع "، وهى التى تندفع بصاحبها أو أصحابها إلى تصديق ماتطلقه الشائعات أو تردده الألسن أو تطالعه الأبصار المتعجلة أو القراءات السطحية.. تنجرف إلى ذلك بغير تمحيص ولا تدقيق، ودون استيثاق، تردد الأقاويل وتضخم الشائعات ظانة أن هذا الترديد والإعادة - ولا بأس من الإضافة! - يزيد المرددين والمروجين والمهولين قبولا لدى السامعين، أو يزيد الإعجاب بسعة إحاطتهم ومعرفتهم بالخبايا وحماسهم لما يلفت إليهم الأنظار ويستجلب الرضا والإعجاب!!

وفيما يبدو، فإن خلو يقظة البشر من ذلك التركيز والالتفات الواعى لدرجاته - قد أنسى الناس حقيقة اليقظة وتركيبها.. فصار كل آدمى يصحو بعد نوم أو غيبوبة صحوا لا يقترن باليقظة التى أعنيها، وإنما هو صحو أو يقظة والسلام - كسائر المستيقظين.. لا يصاحبها تركيز ولا التفات واع، فتداهمنا الأحداث من حيث لا ندرى ولا نحتسب، بينما كانت مقدماتها ظاهرة جلية واضحة لو لم نفارق اليقظة الواعية والتفطن والالتفات!

❖ ❖ ❖

على النخبة تقع فى المقام الأول مسئولية بناء "المعقولية" وإثراء ملكة التفطن والالتفات فى المجتمعات، لأن قدرتهم على الملاحظة والرصد والاستخلاص، هى التى تنبه العاديين من الغرق فى بحور الأوهام والظنون وسلبيات الاتكال على لطف المقادير، وتسبر وتلفت النظر إلى تراكم ظواهر لا ينتبه إليها السطحيون أو الغافلون!...

لا يستسلم المتفطنون إلى الاتكال على الصفحة الناصعة لاندماج الجماعة الوطنية فى ثورة ١٩١٩، أو فى المناسبات التى تستدعى الزخم القومى للتضام والتضامن فى مواجهة الأخطار والنوازل فهناك أيضا من الكثبان الرملية الزاحفة ما يستوجب الالتفات إليه. جميل أن نتنادى فى الأزمات بالصفحات المشرقة للوحدة الوطنية. ولكن المتفطن الملتفت يلحظ ظواهر ينبغى التوقف المبكر عندها لمعرفة آثرها على النسيج الوطنى.. هناك حساسيات بدأت تتنامى على خلاف ما كان سائدا بين المسلمين والأقباط.. لماذا باتت الحساسيات تنفجر لدى أى بادرة مهما تفهت؟!. من أربعينيات القرن الماضى اقتبس بديع خيرى والريحانى مسرحية "حسن ومرقس وكوهين" عن مسرحية "المقهى الصغير" للكاتب المسرحى تريستان برنار، وقدماها على المسرح وتسللت إلى الشاشة الفضية بما تحمله من مفارقات كوميدية ساخرة فى تصوير نهم وطمع وشراهة الشخصيات الثلاثة: المسلم والقبطى واليهودى، والمتبدية فى محاولات الثلاثى الالتفاف على الثروة التى نزلت على عاملهم نجيب الريحانى ثم عادل خيرى فى النص المسرحى، وحسن فايق فى النص السينمائى.. أيامها من نحو ستين عاما، وحتى وقت قريب ـ لم يحتقن أحد من المسلمين أو الأقباط أو اليهود ـ وكانوا كُثْر بمصر فى تلك الأيام ـ غضبا لتجسيد شخصية المسلم أو القبطى أو اليهودى هذا التجسيد الكوميدى الساخر!.. بينما بات الاحتقان أسرع إلينا الآن على العمال والبطال، ولم يقتصر على الشأن الدينى فامتد إلى الفئات والمهن

والحرف وأبناء البلدان والقرى.. رأينا ذلك فى غضبة بعض المحامين على تجسيد كاريكاتيرى لشخصية محام فى فيلم "الأفوكاتو"، ورأينا ما صاحب هذه الزفة من تداخل الأغراض واختلاط الأوراق والتحريض على استثارة المحامين!!.. ورأينا القضية التى رفعها بعض أبناء قرية "خِرْبتها" تضررا ـ فيما قالوا ـ من الفيلم الكوميدى الذى اتخذ من القرية أو من اسمها ميدانا للتناول الكوميدى!

لم يحتقن ولم يغضب أحد من القبط أو من أهل الصعيد لقصة ثم فيلم "البوسطجى" للأستاذ يحيى حقى.. هذه القصة التى جسدت سينمائياً، تصور أحداثاً بكوم النحل من أعمال مديرية أسيوط، فيها ما قد يغضب أهل الصعيد إذا تجاهلوا مقتضيات العمل الأدبى، وفيها ما قد يغضب المسيحيين إذا ما نظروا للعمل القصصى من منظور دينى ينأى بالقبطى أن يكون محلا لتناول أدبى أو فنى.. فمدار الرواية حول قصة حب بين "جميلة" ابنة المعلم سلامة القبطى الأورثوذكسى، وبين خليل إبراهيم المدرس البروتستانتى وما أثمرته هفوة اجتبا فيها الشباب جزيته من الفتى والفتاة ـ من مشكلة باتت تهدد حياة الفتاة وتقض مضاجع البوسطجى عباس الذى اطلع على سرهما بفضه الخطابات التى انقطعت وانقطع مع انقطاعها فرصة الفتاة فى النجاة بمداواة أمرها بالزواج الذى تراخى انتظارا لتصريح أو بيان كنسى لاختلاف الملة!. هذه القصة التى عدت من أعظم أعمال يحيى حقى الإبداعية، وجسدت سينمائيا، لم تثر فى أوانها وإلىالآن ثائرة أحد من القبط أو من أهالى الصعيد، بينما رأينا الاحتقان الذى ثار على فيلم "بحب السيما"، وما صاحب ذلك من فورات وقضايا ردها إلى ذاكرتنا أحداث محرم بك التى لا تزال قيد التحقيق لمعرفة أبعاد العمل المسرحى الذى مثل فيما يقال لعرض واحد، ثم شاء من شاء أو شاءوا بعثه من مرقده وطبعه على أقراص

C. D ليشعل ناراً فى حى محرم بك حملت من الندر ما خفق له قلب مصر!.

ليس مقصدى أو مرادى هنا أن أحصى وقائع، وإنما استشهد فقط لأدلل على زحف حساسيات زحفت كالكثبان الرملية دون أن يلتفت إليها أحد، ناهيك بأن يحللها ويسبر أسبابها، لغياب أو خفوت ملكة التفطن والانتباه!..

وأغرب من هذا الخفوت أن يستمر الضمور فى الالتفات رغم هذه الملموسات التى لا تخطئها الفطنة.. أن لا نلتفت لمذا صارت الأحداث تتفجر وتلتهب وتتضاخم لتوافه الأمور؟!.. ولماذا تتحول كل شائعة إلى حقيقة وإلى نار مشتعلة؟! ولماذا تخرج الواقعة المحدودة إلى هياج شامل من هنا أو هناك يفارق فى جموحه أساس وجوهر وروح كل من المسيحية والإسلام؟!.. لماذا يسارع البعض إلى رد كل خطأ - والخطأ وارد - إلى انحياز أو تربص دينى؟!، ولماذا تبتعد "فورات "البعض عما هو سائد فعلا من محبة ووئام وحميمية بين القاعدة العريضة من المسلمين والأقباط؟!..وما هى التراكمات - إن كانت - التى أوجدت هذه الحساسية أو هذا" التربص "؟!

نعم كان النسيج الواحد والاندماج، هو الملمح الحاضر فى تاريخ الجماعة الوطنية فى مصر، ولكن ذلك لايعنى أن النسيج آمن فى كل الأوقات من عوامل السلب الداخلية، ومن عوامل التحريض الخارجية المقصودة فى معظم الأحوال إن لم يكن فى كل الأحوال!!.. هذه العوامل الخارجية لا تنفى مسئولية الداخل عن اللاتفطن وعن إهمال التربة حتى صارت مرتعا لمن يريد ضرب الوطن وضرب وحدته فى مسلسل لحوح اتصل فيه الحاضر بالماضى مع تغير فى الصور وإن لم تختلف حقيقة المراد!!

نقطة البداية أو الأساس لمواجهة أية مشكلة، أن نقر أولا بوجودها وأن نلتفت إليها متيقظين متفطنين، وأن نمعن النظر فيها بصدق وصراحة وإخلاص.. لا يتأتى ذلك مالم نسبر الأعماق لنستكشف سر أو أسباب كل "طفح" عرضى لايصدر عن طبيعة وجوهر الإسلام والمسيحية، ولا يتفق مع الحميمية السائدة الظاهرة بين القاعدة العريضة لمسلمى وأقباط مصر.